ساحة خضراء

ماتت صاحب مقولة: «إن المسرح أكثر الفنون إثارة»

● هو ليس فقط زوج الفنانة "مارلين مونرو" ملكة الإغراء في السينما الأمريكية في الخمسينيات والستينيات، ولكنه من أفضل الكتّاب المعاصرين في الولايات المتحدة الأمريكية .. في حين تجاوز "فاكلاف هافل" الكاتب التشيكي والرئيس السابق، حدود الولايات المتحدة، عندما وصفه بأنه أفضل كاتب درامي في العالم في القرن العشرين؟

هو الكاتب المسرحي الأمريكي المعروف "آرثر ميلر" الذي وافته المنية في ٢٠٠٥/٢/١١م متأثراً بالسرطان.

قال عن الفن المسرحي: «إنه أكثر الفنون إثارة وخير مجال للتمرد»، فقد كان كاتباً مسرحياً متميزاً .. منذ مسرحيته الأولى «الرجل الذي كانت له الخطوط كلها»، والثانية «كانوا جميعاً أولادي» وموت بائع جوال، وكانت مسرحية ساحرات سالم الذي كتبها في عام ١٩٥٣م في عز سطوة الأولى: تعرضت لضجة كبيرة وسخط من قبل النقاد وشرائح كبيرة من الجمهور إضافة إلى غضب السلطات التي أغلقت المسرح لأسابيع وقد اعتبرها النقاد أهم أعمال "ميلر" وأكثرها جرأة.

كان يساري النزعة إلى درجة استجوابه من قبل لجنة في مجلس الشيوخ الأمريكي .. حيث رفض الوشاية بالكتاب والفنانين المحسوبين على تلك الأيديولوجيات المحرمة .. اليسار» ظل "آرثر ميلر" كاتباً حتى آخر لحظة في حياته .. أليس القائل: «إن الأدب يمكن أن يغير الواقع ويرفع الحيف»؟

لقد أدان "ميلر" حتى مماته ماكان يجده مجحفاً أو مخجلاً في سياسة بلاده أو ممارسات ذوي النفوذ فيها لاسيما نهج "جورج بوش" وخيارات إدراته التي قال عنها: «علينا أن نخجل منها» وقد عكف الكاتب الراحل على نصرة القضايا الإنسانية؟

فؤاد عبدالقادر

تجديد لغة الخطاب اليومي

□ من أهم ركائز بقاء الأمة أية أمة أن تكون قوية ومتماسكة في كل المجالات، وأحد عناصر هذه القوة اللغة القوية، وإن أهم ركيزة تستند إليها أية لغة في العالم حتى تحسب في عداد اللغات القوية لأمة ما أن تكون قادرة على التعبير، عن هموم تلك الأمة، التي تنتمي إليها، وأفكارها، وقضاياها المختلفة.

ومن أمارات قدرة اللغة العربية التي تجعلها قادرة على أن تضاهي بل تتفوق على غيرها من اللغات لو وجدت الظروف الملائمة، جملة معطيات لاتقف عند حدود التنظير بل الاستيعاب والهضم والتجديد، ومنها:

د.فريد العمري

● أولاً: المرونة التي تتمتع بها من حيث استيعابها لمختلف المستجدات العلمية، والثقافية والفكرية، فهي تتعدى احتمالية التقبل بل تنتقل إلى المشاركة والتفاعل الإيجابي، بمعنى أنها قادرة على إدراك تلك الانجازات المختلفة: فكرية، وعلمية، وأخلاقية، وغيرها التي تفرزها غيرها من لغات الثقافات الأخرى، والإسهام إلى حد لانقول إنه مماثل، بل إلى حد كبير في رفدها للحضارة الإنسانية بما تمثله الأمة العربية من عمق حضاري يمتد على البعدين: التاريخي، والمكاني.

● ثانياً: تقبلها لغيرها من اللغات لا على مستوى الأفكار والأساليب، واستلهام التراث العالمي: الفني والفلسفي، بل والمفردات العلمية، وتطويعها للغة العربية، بما يتناسب ولسانها من دون التأثير على حقيقة أصل وضعها (المفردات) وبما تقدمه أو تتيحه من فرص متعددة لذلك، مثل: الميزان الصرفي، والتعريب، والتوليد، والاشتقاق، وغيرها من وسائل ترقى لأن تصلح أساساً لوضع العلوم لو كانت المقدرة البشرية العلمية تسمح بهذا.

● ثالثاً: وتفاهم الشعوب العربية في مختلف أقطار العالم العربي المترامي الأطراف حتى مع استعمال غير الفصحى في كثير من الأحايين، لأن في كثير من العاميات جذوراً فصيحة، وتراكيب صحيحة تتيح للشعب العربي أن يجري التفاهم فيما بين مجتمعاته حتى لو نأت بعضها الجغرافيا الطبيعية، وذلك على الرغم مما يهول له أو به بعض دعاة الوطنية التي تعني أول ماتعني تشطير الرقعة الواحدة إلى أجزاء كثيرة مثلما يفعل الفرحون بقالب (الكيك).

ومما يجب ملاحظته في هذا الخصوص أنه لايوجد فرق كبير بين المستويين الفصيح والعامي في اللغة العربية عند التعبير، ولكن من أبين الفروق الموجودة في الاستعمال إنما يكون في إعراب الألفاظ، والتصويت بها مفردة أو مركبة في جمل، وهو مايسمى (اللحن) إذ معناه الخطأ في اللغة: أصواتها، أو نحوها، أو استعمالها، أو معاني مفرداتها، أي الخطأ النحوي فقط رفعاً، أو نصباً، أو جراً، بعيداً عن تعاطي المفهومات التي يدركها الناس من غير عناء.

وأنا إذ أقول هذا لاأطالب أبداً برواج العامية أو العاميات بصورة عامة، فهي كثيرة وكثرتها لابد أن تكون غلابة على المستوى البعيد أو غير المنظور، إذن لابد من الارتفاع بذلك القدر المشترك من المفردات والتراكيب الصحيحة التي يفهمها الجميع في غير مكان، وتعميمه وإبراز قيمته مع الاستزادة منه قدر الإمكان، ثم التركيز بصورة حقيقية على المستوى الذي يعبر به الناس عن همومهم وأفكارهم، حتى لاتكون هناك نفرة ترجع بالقدرة إلى الصعوبة، وبالفهم إلى العيّ، وبالطيب إلى الخبيث، ثم بالمفروض إلى المرفوض.

إن محاولة تهوين المسألة بالطريقة التي ينادي بها كثير من مثقفي الأمة بقصد ومن غير قصد في كثير من الأحايين ربما يكون سببه اليأس الحاصل في أنفس عامة الناس بسبب تدني المستوى الحضاري للأمة بالمقارنة مع ماحققته الأمم الأخرى من تفوق حضاري متقدم قدمته لنا بلغاتها الخاصة.

فكتابة العلوم والثقافة باللغة العربية الدارجة أو باللهجة العامية يعني أننا لن نستطيع تمييز الفاعل من المفعول هذا على مستوى الجمل البسيطة، فما بالنا إذا كانت الكتابة ستطال الجوانب الرفيعة من الأدب واللغة، والفكر بصورة عامة، ولست أدري إن كانت العامية فعلاً قادرة على فعل ذلك؟! صحيح أن هناك فرقاً مابين جمل التفاهم بين الأفراد، والكتابة الأدبية الرزينة، وكذلك الكتابة العلمية المحضة، التي تتطلب مستوى دقيقاً بقدر ماتستوجبه من قدرة فائقة على تقديم المفردة المناسبة في التركيب السليم الذي ينبغي أن يبتعد قدر الإمكان عن التقعر، والحوشي، والغريب، بما يصل إلى درجة عالية من الرضى الجماهيري، والتوافق على صحة من الدوائر العلمية ذات الشأن، لذا فأفتراض أن المفردات العامية وبساطتها غير مناسبة في هذا المجال يكون افتراضاً فيه تجن عليها وجيادية للزوم لهما، وأحسب أنني لاأكون منحازاً إذا قلت: إن تضافر المفردة العامية وبساطتها مع المستوى الفصيح وقاعدته النحوية الصارمة يرفد اللغة العربية بقدرة فائقة تضاهي لغات الأمم الأخرى، وتجعلها تقف إلى مصافها الند للند. إن تسقط ساعتها مقولة أن اللغات الأخرى، أكثر اختصاراً، وأقل جهداً في التعبير، ذلك إذ حذف بعض أجزاء التركيب اللغوي لايدل بأي حال من الأحوال على قوة اللغة، بل إن الصحيح في مثل هذا الموضع بأن يتمايز كل معنى عن غيره، ولن يتحقق ذلك إلا بألفاظ خاصة ومنفصلة لكل معنى.

وهنا لابد من ضابط صوابي لايتعداه مستعمل اللغة بخاصة عندما يتسع مجال استعمالها، وتكثر المؤثرات الخارجية القوية عليها. والمحافظة على وجود هذا الضابط يعني المحافظة على الوجه المشرق لحافظة تراث الأمة التي تتميز به عن غيرها. ألا وهي اللغة.

وقد وضع العرب قديماً مثل هذا الضابط فظهر فيما بينهم الاختلاف بصريين وكوفيين، في درجة تشددهم أو تراخيهم في تطبيق هذا الضابط، في مختلف مستويات اللغة: اللفظة المفردة، أو التركيب، وبجميع مايتعلق بهما من قضايا.

وبالمناسبة هنا فإن بعض مايرمي به بعضهم لغتنا من صعوبتها بسبب قواعدها ونحوها لايستقيم مع الواقع، ولا يعني هذا أيضاً أن لغتنا ضعيفة، وجيء بهذه القواعد لتسندها وتقويها مما يجعل بعضهم يقول إن لغة بهذه المواصفات لاتصلح لأن تكون لغة للعلم والحضارة. والحقيقة أن قواعد اللغة العربية وضعت أول ماوضعت لتعليم الأمم من غير العرب التي دخلت الإسلام حديثاً، وكان واجباً عليها تعلم العربية لتقرأ قران الإسلام، وتحكي لغة نبي الإسلام، ولعل حبهم لهذه اللغة جعل أول وأكثر من يهتم بها منهم. وليس في هذا الكلام دعوة إلى الرجوع إلى تعلم اللغة القديمة وقواعدها، والعودة إلى استعمال: مفرداتها، وتراكيبها بحرفيتها، وإنما المقصود هنا الرجوع إلى تلك القواعد الأساسية التي لايستطاع تغييرها، نظراً إلى ما تحدثه من خلل في نظام العربية الثابت، فنحن غير مجبرين على استعمال: حبذا، وأنعم به، وصه، وعم صباحاً ... وغيرها، ثم نقطة أخرى لابد من الإشارة إليها وهي أنه إذا كانت الفتحة، والضمة، والكسرة، وحذف النون، أو إثباتها، وجمع التكسير أو التأنيث، وغيرها تعد حائلاً أو مانعاً دون إبداع شعري أو نثري، أو فكري بصورة عامة، فبئست تلك اللغة، وبئس ذلك الإبداع الواهن.

إن المجتمع اللغوي هو الذي يحدد درجة المستوى الصوابي المحكية، وذلك بأن تكون ضمن الأطر والقواعد العامة التي ارتضاها المستوى الأدبي الرفيع، بحيث تصون هذا المكتسب بوصفه صار ملكية خاصة لايجوز التفريط به فمخالفة العرف الجماعي الذي تنتمي إليه اللغة يعني ظهور بوادر الخشية عليها، ومن المعروف أن الفروق اللغوية الفردية موجودة بالضرورة نظراً إلى اختلاف الأفراد والبيئات.

ولا ضرر في أن يستعمل مجتمع مابعض مالديه من مفردات من اللهجة الدارجة.

فتكون لها نكهتها التي تضفي على المنجز اللغوي بعض القيم الدلالية، أو البلاغية، أو التناصية التعبيرية، بمعنى التواصل اللغوي مع الموروث الشعبي الذي يصبح له في هذه الحال دور تكميلي في أداء المستوى الفصيح.

فليس من بأس أن يستعمل مجتمع ما اللغة المحكية، مطعمة ببعض مفردات تأثرت بها اللغة الأم من لغات أخرى، ولكن -كما قلت- ضمن نطاق التأثر والتأثير، لاأن يكون هذا الاستعمال مهيمناً على اللغة: قواعدها، ومفرداتها، بحيث تطغى على اللسان الوطني، فتتبدل مفردات الاستعمال، ونبر الكلام، والقاعدة النحوية الضابطة له، فإذا تأثرت لغة بلغة أخرى فيجب أن يكون ذلك فيما تفتقده هذه اللغة، وتحس أن بها حاجة إليه، ذلك أن اللغة الحية القوية هي تلك اللغة الغنية التي تجد فيها رمزاً لكل المدركات الحسية والوجدانية التي يحتاجها الإنسان فيعبر بها من دون قلق أو نقص، حتى لو كان ذلك بالاقتراض من اللغات الأخرى بصورة توافق عليها الذائقة اللغوية المجتمعية، وأقسام اللغة العربية في الجامعات، ومجامع اللغة، وغيرها من مراجع الاختصاص.

وبناء عليه نؤكد قضية في غاية الأهمية تلك هي استعمال اللغة في المواقف الحياتية اليومية، إذ ينبغي أن تسود لغة عربية تثاقفية ليست تلك التي تجري في الأسواق، وفي الشوارع، وبين المغنين بالغاً مابلغ تطريبهم، وبين الأمين على قلتهم هذه الأيام، إذ بحمد الله ارتفعت نسبة المتعلمين في عالمنا العربي إلى حد مطمئن، فلغة التدريس، والمحاضرة، ولغة السياسي، والاقتصادي، وغيرهم مهما كان التخصص الذي ينتمي إليه المتكلم ينبغي أن تكون من ذلك النمط الذي أسميته المستوى التثاقفي للغة، إذ تعد هذه النخب المثقفة القدوة لبقية أفراد المجتمع الذي سيسير على نهجهم، ويتبع طريقتهم.

وفي هذا الصدد من المفيد جداً أن نقر بأن لكل لغة من لغات العالم محبيها، والمدافعين عنها مهما كانت تلك اللغة، ومهما كان عدد متكلميها، لابأس أن نطاول أفضل لغات العالم، لأن نتطاول عليها، وأن نفخر بلغتنا، ونتيه بها، ونعدد فضائلها من أبسط المحاسن حتى وصولنا بها إلى العالم الآخر مروراً بكل الفضائل الظاهرة والباطنة، فليست اللغة بعدد متكلميها وإنما بإنجازاتها الحضارية في مجالات الحياة كافة، يقول الشاعر العربي مفتخراً بنفسه:

إذا كنت في القوم الطوال
فضلتهم بعارفة حتى يقال طويل

أما التهجم على لغات الأمم الأخرى، والانتقاص من شأنها، فليس من فضائل الأمم التي تعتز بلغتها، وبحضارتها، بل على العكس من ذلك، ينبغي أن تكون تلك اللغات ذات الأقلية مثالاً يحتذى خاصة إذا امتلكت أمتها زمام إنجازات حضارية رائعة: قطرية، أو إقليمية، أو إنسانية، ولا ضير أن تكون ساعتها لغة يابانية لايتكلم بها إلا في الجزر اليابانية، أو ألمانية، أو برازيلية، أو أقل من ذلك، غير معروفة إلا في محيطها الجغرافي الضيق، فالافتخار على اللغات الأخرى ذوات الانجازات العظيمة يكون بتقديم إنجازات مماثلة إن لم تكن أعظم، وأكثر نوعاً، وعدداً.

وما نشهده على الساحة العربية هنا أمر يدعو إلى الاستغراب والتعجب، مع أنه أمر لايخيف بالمرة، إذ أن مايجري ليس إلا (صعلكة) لغوية لن تؤثر إلا بالمستوى السطحي المتداول من اللغة العربية، فالعربية أكثر حصانة من هذه (الموضة) اللهجية التي تستعمل من أجل (التمظهر اللغوي) الشكلي (البرّاني) ليس أكثر، فهي -أعني هذه التقليعة- لم، ولم تدخل لغة الخطاب الرسمي أو الأدبي بأي حال من الأحوال الفعلية، وهذا الاستعمال اللغوي الغريب هنا وهناك -مع مافيه من إرباك- لن يطال البنية العميقة في وجدان المتكلمين بها، وسيبقى فقط يلامس بين الحين والحين البنية السطحية في الكلام الاستهلاكي العابر، لكن هذا لايعني مطلقاً التهاون بهذا الشأن والتقليل منه إلى حدإغفاله، فعلى رأي المثل «العيار اللي مايصيب يدوش».

أما هزيمة اللغة العربية بدعوى الهزيمة التي تحيق بالأمة العربية منذ أمد ليس بالقصير، والتي تعادل، أو تكافئ الموت في نظر بعض دعاة العاميات، فالحقيقة أنها -أعني الهزيمة- لا، ولم، ولن تطال اللغة العربية، وستنحصر فقط في المستوى السياسي التنظيري، أو المادي، وعندما تزول تلك الرموز العتيقة، سواء السياسية، أو الثقافية، أو الفكرية، أو العلمية التي تمثل الانهزام في هذا العصر، فستعود اللغة العربية بحراً لايمكن إلا الإثراء من كنوزه الثرّة التي لاتنضب أبداً في المستويات الإنسانية الحضارية الراقية كافة.

هل الذوق الجمالي ثابت أم مُتغير؟

■.. إذا كان من طبيعة الحياة ذاتها التغير والتطور فليس المتوقع أن نجد الناس يعيشون بأذواق أسلافهم، إنهم يعيشون في الحاضر وبعقل الحاضر.. والذوق حينما يتبلور في حضارة معينة يميل الى الثبات ويمكن استنتاج ذلك في طرز الحضارات القديمة وهي اليمنية والمصرية واليونانية والرومانية وحضارة عصر النهضة، حتى سمات المدنية في عصرنا الحاضر.. وذوق كل حضارة هو ثمرة لتغيير ذوق الحضارة التي سبقته ويتم التغير بفاعلية الرؤية الجديدة وفلسفتها وجهد الفنانين في انتاج الأمثلة الملموسة التي تعطي الذوق لحماً ودماً مغايراً لما كان سائداً في العصر السابق.. وموجات الثبات والتغير التي تتلوها موجات أخرى من الثبات والتغير من الأمور الملاحظة في انتشار الذوق.. فالإنسان المحافظ يميل الى التمسك الحرفي بالتقاليد وما يرتبط بها من أذواق ،بينما الإنسان المتطور ينسلخ تدريجياً لاكتساب تقاليد جديدة أكثر تلاؤماً وتكيفاً مع الأوضاع الجديدة.. كما أن النقد الفني ضرورة للارتقاء بالذوق والتطور به، والنقد الفني معناه إصدار أحكام يزن بها الناقد ما تحقق ومالم يتحقق وهو أيضاً دعوة الى الرؤية للذين لا يملكونها حتى يروا قيماً جديدة ويحسوا بها فيشاركون في المتعة بالذوق المعروض ويسايرونه، وبدون النقد الفني تظل الحواس ويظل اعتماد الإنسان على الموروث وعلى المنهج المحافظ..

فاروق الجفري

والنقد يمارسه المتخصص مثلما يمارسه الأكاديمي المحافظ وتاريخ الفن يحفل بأمثلة توضيح الصراع بين الناقد الفني المحافظ وبين الفنان المتطور، وخلاصة القول بأن الذوق يمثل الاستجابة الوجدانية التي يميز بها الإنسان بين الجميل والأقل جمالاً والقبيح في كل ركن من أركان الحياة، وكلما ارتقى ذوق الإنسان تمكن من الاستمتاع بالقمم الرفيعة في الحياة المنعكسة في سائر الفنون وفي الخبرات البشرية المتكاملة بوجه عام..

دستوفيسكي وحكايات بداخل حكاية

(رؤية في رواية المساكين)

أدخل دستوفيسكي حكاية بداخل حكاية وهذه ميزة تضاف لهذا الكاتب.. ومع أنه ذكر قصصاً قصيرة مثل قصة عمله، وقصته مع الممثلة التي أحبها ثم تركها إلا أن هذه القصص مرت كعابر سبيل، وعندما نتفحص ثنايا الرواية نجد قصة صديقه غورشكوف تلك القصة التي صبغت الرواية بلون حزين بائس..

وقد جاءت قصة غورشكوف مجزأة على ثلاث رسائل إلا أنها متوالية الأحداث ومتكاملة، وقد جاءت هذه القصة مدمجة بقصة ماكار وفرنكا..

وسأذكر قصة غورشكوف فيما يلي:

انتصار حسن مشراح

● غورشكوف إنسان عادي فقير يعيش مع أسرته الصغيرة وزوجته وأطفاله الثلاثة ويسكن غرفة واحدة مقسمة بحواجز.. ولفقره المدقع لم يستطع إعالة أسرته وكذلك لم يستطع علاجهم، فتوفي ابنه ذو التسعة أعوام، بعد أن عانى من المرض..

وقد وصف ماكار مشهد تابوته ووصف حالة أمه وأبيه في تلك اللحظة، وكيف كان والده حزيناً يسح الدموع، أما ابنته الصغيرة فاتكات على التابوت واضعة إصبعها بين شفتيها وقد ارتسمت ملامح العبوس على وجهها البريء..

وعندما أعطتها صاحبة المنزل قطعة حلوى أخذتها ولكنها لم تأكلها.. «مشهد مؤثر فعلاً، طفلة لم تعرف بعد معنى الحياة»..

ويظهر الإيثار الذي اتصف به ماكار..

فيما يأتيه غورشكوف طالباً منه عشرة كوبيكات ولم يكن لدى ماكار ديفوشكين سوى عشرين كوبيكاً فأعطاه إياها ناسياً نفسه، فقد وضع في حسابه أن هذا الرجل لديه مسئولية زوجة وأولاد، ولم تطاوعه نفسه على خذله وقد قال له بأن أطفاله وزوجته جائعون «قالها وقد احمر خجلاً»..

وقد اتهم غورشكوف في قضية أساءت كثيراً الى سمعته، وأهانت كرامته، وحين حكم لصالحه فرح فرحة لا توصف ودعا كل أصدقائه ومعارفه لوليمة أقامها في منزله، ولم يكن يردد غير «الشرف، الشرف، هذا الذي ساتركه لأبنائي»..

كان سعيداً جداً مبتسماً طوال الوقت، وكأنه كان يوم عيد قال لزوجته سأستلقي قليلاً واوى لفراشه ودعا ابنته وأخذ يمسد رأسها طويلاً، ثم التفت الى زوجته قائلاً: ماذا عن بيتنكا إبننا بيتنكا؟ رسمت زوجته علامة الصليب واجابت: ولكن ابننا بيتنكا قد مات .. فيقول: نعم.. نعم.. اعرف أعرف..

طلبت منه زوجته أن يأخذ غفوة فقال: نعم الآن سأغفو.. قليلاً.. واستلقى لبعض الوقت ثم انقلب وهمّ أن يقول شيئاً ولكن زوجته اخطأت السمع فسألته عما يتحدث فلم يجبها..

ظنت أنه قد نام فذهبت لتلهي نفسها بعمل ما، وعندما عادت وجدته وهو على حالته الأولى ووقتها أحست بصمت القبور، وعندما اقتربت منه وجدته جثة هامدة..

والشيء الذي يؤثر على القارئ لهذه القصة.. هو أن الأب كافح في سبيل إثبات براءته، وبما أنه فقير لايملك مالاً يتركه لأولاده، فكان أشرف شيء يستطيع توريثه لأبنائه هو حسن السمعة فهو وإن مات فقد مات شريفاً..

وهذه القصة ذكرها ماكار لفرنكا في رسائله.

قصة فرنكا

وتوجد قصة أخرى، هي «قصة فرنكا»، وهذه القصة بالذات جاءت على شكل ذكريات لماضي فرنكا، فهي تقتطف هذه الذكرى من دفتر مذكراتها وترسلها الى ماكار ديفوشكين وإذا قارنا بين هذه القصة وقصة غورشكوف لوجدناها أطول من الأخيرة، وكذلك امتازت قصة فرنكا بوجود شخصيات مسماة، بعكس قصة غورشكوف..

وقد امتزجت هذه القصة بجو الرواية فجاءت حزينة ومؤثرة للغاية..

شخصيات القصة:

- فرنكا، ووالدها، ووالدتها
- الشاب بوكروفسكي ووالده العجوز
- قريبة فرنكا «آنا فيدورفنا» والطفلة ساشا «ابنة عم فرنكا» طفلة يتيمة تربيها آنا وبكوف الذي ساعد بوكروفسكي في الدراسة ودبر له مسكناً عند آنا.

أحداث القصة

كانت طفولة فرنكا أسعد فترات حياتها، فقد تربت في ذلك الريف البسيط وكانت في أغلب الأحيان تركض وتجري في تلك البساتين وتلك الحقول..

فرحة لا تدري بما يخبئ لها القدر..

الانتقال الى المدينة:

وتبدأ أول صفحة في شقاء فرنكا حين يقرر والداها الانتقال الى بطرسبورج، وهكذا تبتعد فرنكا عن ملاعب طفولتها وهي لم تتجاوز الثانية عشرة من عمرها، وفي المدينة تجد نمط الحياة متغيراً غريباً مما ساعد في تكوين كآبتها..

وعندما يدخلها والدها مدرسة داخلية، تمضي أكثر أوقاتها في البكاء وتظل تفكر بأبويها وما إن ينتهي الأسبوع حتى تركض فرحة الى البيت.

فهي لم تستسغ النظام الصارم لتلك المدرسة، ولكنها ومع ذلك كانت تبذل كل مافي وسعها لكي تُسعد والديها..

- موت والدها:

وحين تكثر علي والدها الديون يصبح سيء الطباع، غاضباً على الدوام، ومع أنه كان يحب إبنته كثيراً، إلا أن الظروف التي كانت حوله أجبرته على توبيخها ولومها فيقول بأنها لم تجلب له أي مسرّة، وبأنهم يحرمون أنفسهم من آخر ماعندهم لكي تدرس وتتعلم.. ومع ذلك فهي لا تستطيع التكلم بالفرنسية أما أمها فكانت تبكي بصمت وكأنها كانت تشعر بما يرسم لها القدر..

ومع الأيام تتدهور صحة والدها ثم يموت فجاة وعلى غفلة، وعلى الفور يأتي الدائنون من كل حدب وينسلون، فلم يكن أمام والدة فرنكا إلا أن تبيع المنزل لتسديد الديون..

وبهذا أصبحت الأم مع ابنتها بلا مأوى وبلا سكن، وقتها كانت فرنكا في الرابعة عشرة من عمرها.

فتأتي قريبتهم آنا فيدوروفنا للتعزية وتطلب منهما المجيء للسكن معها.. فقبلتا العرض بامتنان.

في منزل آنا:

حوى منزل آنا خمس غرف عاشت في ثلاث منها مع الطفلة ساشا، وخصصت غرفة لفرنكا ووالدتها أما الغرفة الأخيرة فقد كانت مؤجرة من طالب فقير يدعى بوكروفسكي كان يعلم ساشا الألمانية والفرنسية وبقية العلوم ولقاء ذلك يحصل من آنا على مسكن وعلى غذاء.

فلاحظت آنا لوالدة فرنكا بأن تدع ابنتها تدرس مع ساشا بحكم أنها تركت المدرسة الداخلية، وبهذا درست لدى بوكروفسكي لمدة سنة كاملة..

التعرف على بوكروفسكي

كان بوكروفسكي شاباً غريب الأطوار، يتكلم بطريقة غريبة، وكان دائم الارتباك وهذا ما كان يثير ضحك الفتاتين، وكانتا تسخران منه، وتستمتعان بمضايقته وكم كانتا تفرحان إن استطاعتا إخراجه من الغرفة غاضباً..

وفي يوم من أيام دراستهما، أزعجتاه لدرجة أن عينيه اغرورقتا بالدموع وقال هامساً: طفلتان خبيثتان..

حينها خجلت فرنكا من نفسها فقد كانت في الخامسة عشرة من عمرها ولم تعد طفلة فلماذا تتصرف هذه التصرفات الصبيانية..

وفي يوم من أيام دراستهما، أزعجتاه لدرجة أن عينيه اغرورقتا بالدموع وقال هامساً: طفلتان خبيثتان..

حينها خجلت فرنكا من نفسها فقد كانت في الخامسة عشرة من عمرها ولم تعد طفلة فلماذا تتصرف هذه التصرفات الصبيانية..

حزنت لأجله كثيراً وشعرت بأنها قد جرحت كبرياءه بتصرفها الأحمق. ومن يومها أخذت تنظر إليه بنظرة مختلفة، فوضعت في أولى حساباتها بأنه إنسان لديه مشاعر وأحاسيس، وبما أنها في ذلك الوقت كانت مراهقة وكان بوكروفسكي أول شاب تصادفه، فكان من الطبيعي أن تنجرف وراء مشاعرها ويصبح هذا الطالب الفقير هو حبها الأول.

أرادت فرنكا أن تثير اهتمامه فوجدت أن هذا الشيء لن يحدث إلا إذا أصبحت مثله «متعلمة ومثقفة».. فقد كان يمضي كل وقته على الكتب، حتى أن الكتب احتلت أكبر مساحة في غرفته.

وفي أحد الأيام وبعد أن تأكدت خلو بوكروفسكي من البيت، تسللت خفية إلى غرفته وتسمرت عيناها على تلك الأرفف المليئة بالكتب، فاختارت كتاباً وجرت به الى غرفتها.

وحين فتحته وجدته باللغة اللاتينية، فعادت أدراجها لإرجاعه، ولكنها لم تستطع إدخاله في مكانه السابق، فقد كان محشواً بقوة بين الكتب.

وبينما هي تهرسه، إذا بالمسمار الذي يستند عليه الرف يقتلع من مكانه وتتساقط الكتب وفي نفس اللحظة يدخل بوكروفسكي ويجد كتبه متناثرة هنا وهناك فتسرع فرنكا لتجمع الكتب فيصرخ بها وهو يجمعها ويقول لها بانه لايحتاج الى مساعدتها وأحسن شيء ستعمله هو خروجها من الغرفة، ولكنها تبقى وترفع الكتب عن الأرض وترتبها، فيخفف من نبرته ويقول: متى ستصبحين راشدة؟ فقد أصبحت كبيرة ثم يلتفت نحوها ليتحقق من صحة كلامه وحينها تحمر فرنكا خجلاً وتخفي وجهها بيديها وتجري الى غرفتها.

بعد هذا الحادث ببضعة أيام تمرض والدة فرنكا وتلزم الفراش، فتقعد فرنكا عند سرير والدتها وترعاها وتقدم لها الدواء وتعتني بها، حتى أنها تنسى نفسها وتهمل صحتها، فلا تأخذ أي قسط من الراحة ومن شدة الارهاق النفسي والجسدي يغمى عليها ولا تستيقظ إلا على يدي بوكروفسكي فقد أخذها لسريرها ونصحها بأن تعتني بنفسها أكثر من السابق.. وفي الليلة الأخرى جاء وأعطاها كتاباً لكي لا تشعر بالضجر لوحدها..

وهكذا كان يكلمها في فترة مرض أمها ويحاول أن يخفف عنها همومها، أما عن والد بوكروفسكي فقد كان يزوره بين الحين و الآخر، وكان يحبه حباً شديداً لأنه كان يشبه زوجته المتوفاة «والدة بوكروفسكي»..

وكان كثيراً ما يجلس الى فرنكا ووالدتها يناقشهما ويحادثهما قبل أن يدخل لغرفة ابنه وعندما اقترب عيد ميلاد بوكروفسكي فكرت فرنكا بشراء الأعمال الكاملة لبوشكين كهدية له..

وبينما هي تشتري وجدت أن نقودها لم تكن لتكفي لشرائها كاملة فقد كان لديها ٣٠ روبلاً وكان ينقصها روبلين ونصف.

وبالصدفة وجدت والد بوكروفسكي يتخبط يميناً وشمالاً يبحث عن كتاب يشتريه لابنه، فدعته وطلبت منه أن يضيف على مبلغها روبلين ونصف لتكون الهدية مشتركة.

مرض بوكروفسكي:

ولكن الأيام السعيدة سرعان ما تنقضي فها هو بوكروفسكي يصاب بوعكة صحية تلزمه الفراش، وتلازمه فرنكا طوال فترة مرضه، كان كثيراً ما يهذي عن عمله عن والده، عن نفسه وعنها..

وفي تلك الليلة الأخيرة كان يتعذب كثيراً، كان يئن من الألم أما عن والده فكان يرتجف بجانبه فاقداً للذهن من جراء هذه المصيبة..

بدأ بوكروفسكي بالاحتضار وودّع الجميع، وكان يقول شيئاً غير مفهوم حتى فهمت فرنكا قصده «كان يشير الى النافذة لكي تُزاح عنها الستائر وكأنه كان يريد أن يُلقي آخر نظرة الى السماء» فرفعوا الستائر فلم ير غير الجو المطر الكئيب فهز رأسه بحزن ونظر إلى فرنكا ومات.

وتوفي أغلى شخص عرفته فرنكا، وعند تجهيز التابوت أخذت آنا فيدوروفنا كتبه لتبيعها فإذا بوالده يسرع ليلتقط مايستطيع التقاطه..

يأخذ الأشياء الوحيدة التي بقيت لديه من ولده، والأشياء الوحيدة التي تركها ابنه.

فإذا به يهرس الكتب في كل مكان في جيوبه، في يديه تحت إبطيه، وتحت قبعته ويجري مسرعاً ليؤدي مراسيم الدفن مع فرنكا.

أغلق التابوت بالمسامير وحُمل على العربة، أخذ العجوز يجري وراء العربة ويصرخ باكياً بينما تتساقط الكتب من جيوبه، وتسقط عنه قبعته فيتوقف لأخذها وقد تبللت بالمطر.

ويظل ممسكاً لكتاب كبير بين يديه ويظل يجري ويبكي تحت المطر، وأذيال سترته الطويلة تتطاير مع الريح.

ويراه المارة فيرسمون علامة الصليب ويشيرون له بالكتب المتناثرة فيأخذها وينطلق خلف العربة.

عادت فرنكا حزينة ممزقة القلب معذبة الخاطر، ألقت بنفسها على صدر أمها وأجهشت بالبكاء وكأنها تحاول إمساك آخر شخص تبقى لها..

ولكن الموت كان يحوم فوق أمها كذلك.

وبعدها بسنة أو سنتين انتقلت فرنكا للعيش مع فيدورا وتتعرف بماكار وتواصل حياة البؤس والحزن.

قصص مؤثرة تبدو وكأنها أحداث فيلم سينمائي بني على أساس قصة واقعية.

ولا يخفى على أحد.. بأن دستوفيسكي كان معجباً بفيكتور هوجو واهتمامه بقضية الإنسان المهضوم الحقوق ولذا نرى التقارب الواضح بين مساكين دوستوفيسكي وبؤساء هوجو..

وعندما كتب دستوفيسكي على أولئك المساكين كتب كل شيء عنهم و كل شيء يخصهم إلا أنه نسي مسكيناً لم يذكره ولم يورد قصته في رواياته فتمرد هذا المسكين وظهر من بين السطور وعرفه الجميع باسم دوستوفسكي.